١١
ذكريات مدرسية

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تخيرتها من عهد كنت فيه تلميذًا وعهد تال كنت فيه مدرسًا.

وسأكتفي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل ولست أرمي إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماض بحاضر، فمثلا يمكن بسهولة أن تتصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت: إن تلميذًا كان معنا في المدرسة نال الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرسا لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية، وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى «الأشياء» وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الإنجليزية. وأرسم خطا آخر تتم به الصورة فأقول ما قلت في فصل آخر: إن ناظرنا كان يقول عن نفسه: إنه جاهل جاهل ولكنه إداري.

والآن أنتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية.

كان التعليم الثانوي انتقالا بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة إنجليزيا الناظر والمدرسون والتعليم ما عدا اللغة العربية.

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات، وأكبر ظني أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا، ويتساهلون معنا، ويتركوننا ننجح على سبيل الاستثناء، وأدع غيري وأقتصر على نفسي فإني أعرف بها، فأقول: إني ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة، أو أن أقدر فيها على شيء، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة

إلى أخرى بلا عائق، وكان الأساتذة يختلفون فمنهم الفظ ومنهم الرقيق، وأذكر أن أحدهم ان يذكرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملي درس الجغرافيا، فإذا كان الدرس التالي طالبنا به محفوظًا عن ظهر قلب، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعة واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع، ثم يضع في كل ركن واحدًا من الحافظين ليمتحن زملاءه. وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئًا عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها.

وكان لنا مدرس آخر من أظرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظا، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له: تهج كلمة بليد مثلا أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة. ولم يكن تدريس اللغة العربية خيرا من تدريسها في الوقت الحاضر ولكنا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان، لا أدري لماذا. وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلا طيبا وقورًا مهيبا، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ، ولا نستغرب نحن شيئا من ذلك بل نراه أمرا طبيعيًا جدًا.

وأعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما أغرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم، فإني أراني إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا إكبارهم حين ألتقي بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئا يستحق الذكر. ومن لطائف الشيخ حمزة أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا، ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيرًا، وقد اتفق لي بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرسًا في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء

الشيخ حمزة للتفتيش فاغتنمت هذه الفرصة وقلت: «يا أستاذ، ما هو الاسم العربي لهذا الدخان الذي نسميه الدخان والتبغ تارة أخرى؟» فقال: انتظرني يا سيدي حتى أنظر في «الكناشة» وأخرج مما يلي صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدري كيف كانت مختبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت:-

كـأنما حثحثـوا حـصا قوادمـه أو أم خـشف بـذي شـت وطبـاق

ومضى عني، وفكرت أنا في كلمة الطباق التي جاءني بها الشيخ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزي أو الفرنسي «توباك أو توباكو».

ومن حوادث الشيخ حمزة معي أني كنت أؤدي الامتحان الشفوي في الشهادة الثانوية وكان هو رئيسًا للجان اللغة العربية، فلما جاء دوري اتفق أنه كان موجودا فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألني ماذا أحفظ؟ وكنت في صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي صلى الله عليه وسلم فعلقت بذهني وألهمني الله أن أقول: إني أحفظ خطبة النبي، ففرح الشيخ جدا وخلع حذاءه وصاح: «قل يا شاطر الله يفتح عليك» وسترني الله فلم أخطئ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفاني من النحو والصرف والإعراب.

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع علي سنة، وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد إخواني بعد خروجه من الامتحان: إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار. ولم نكن ندرس نحوا ولا صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأيقنا بالفشل، وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت، ولا أزال

أذكر فاتحة الكلام وهي «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها» إلخ. فقال: ضع الكتاب. فوضعته، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها الفعل «اعتدى» مثل «اعتديا» للماضي المثنى و«اعتديا» للأمر، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سببًا وقلت: إنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهم هكذا، فدهش لهذا الجواب وقال: «ولكن لهذا سببًا» قلت: «إن اللغة سبقت النحو والصرف، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مختلق» فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل وأصررت على رأيي وكاد يحدث ما لا يحمد، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش وكان عضوا في اللجنة تدارك الأمر، فقد نظر في ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال: «العصر وجب يا مولانا» فنهض الشيخ وهو يقول: «أي نعم» وذهب للصلاة ونسيني فكان في هذا نجاتي. وقد حفظت هذا جميلا للشيخ شاويش، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به.

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين، ويكفي أن أقول: إنه كانت لنا في الأسبوع ثماني ساعات لا نتلقى فيها أي درس، فترك هذا التخفيف وقتًا كافيًا للمطالعة الخاصة... وكان أستاذنا وناظرنا يشجعوننا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر، وأحسب أن هذا نفعنا جدًا.

وقد صرت معلمًا بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين، خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذا أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية، ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكني

كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ، فكنت أعرف كيف أقمع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة، وكانت طريقتي أن أتجاوز عن الذي لا ضير منه فلا أشغل به نفسي والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافه فيطلبها من جاره، ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا من الكلام الذي لا يباح، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوما وأنا مدرس في المدرسة الخديوية أن دخلت فرقة فألفيت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوصة على نحو لا شك أنه متعمد وكان تلاميذي لا يجهلون كرهي للرياضة، وكنت أنا لا أكتمهم أني أعد نفسي جاهلًا بها حمارًا في علومها، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثوني عسى أن أثير الضجة التي يشتهونها ولا يفوزون مني بها ولكني لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس. واتفق يوما آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق، وكان الوقت صيفا والجو حارًا جدا فضاعف الحر شعوري بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة، وأدركت أنها هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة، فقلت لنفسي: إنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد وإذا كانت الرائحة القبيحة تغثي نفسي فإنها تغثي نفوسهم معي أيضًا، فحالهم ليس خيرا من حالي، والإحساس المتعب الذي أعانيه ليس قاصرا علي ولا أنا منفرد به، وإنهم لأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معي وقد أرادوا أن يفردوني بهذه المحنة، والفوز في هذه الحالة خليق أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال، فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد الأخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إلى مثلها بعد ذلك، وقد كان. تصبرت وتشددت ودعوت الله في سري أن يقويني على الاحتمال، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة الملعونة، وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذي يكابدونه من التجلد مثلي فأسر وأغتبط وأزداد نشاطًا

في الدرس وإغضاء عمن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فقد كنت عارفا أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها.

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها تزهق، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصررت على عنادي المكتوم، واغتنمت فرص أصبع مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد، فقال: إنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد، قلت: افتحها، وفتحت النوافذ كلها، وتشهدنا جميعا واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال ما لا يطاق، وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورائي ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي، وقال لي واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصودا به غيري، وأنهم يطلبون الصفح، فسررت ولكني تجاهلت وسألتهم عما يعنون، قالوا: الرائحة الكريهة التي كانت في الفصل، قلت: «رائحة! أي رائحة.. إنني مزكوم ولهذا لم أشم شيئا فلا محل لاعتذاركم» ومضيت عنهم، وكان هذا درسا نافعا لهم ولو أني عبت أحدا لما أثمر العقاب إلا رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينغصوا علي، وأن ينجح معي عبثهم الطبيعي في مثل سنهم.

وفي آخر سنة من اشتغالي بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت للأساتذة: إنني ألغيت العقوبات جميعا فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ.

ونظريتي هي أن المدرس الذي يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصح لهذه المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغي أن تقوم على المودة والاحترام، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور التلميذ بأن المدرس والد له ينبغي له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوي مداركه وينمي استعداده، وأنه لا يلزمه

بدرس ولا يفرض عليه شيئا بل يرغبه في الدرس ويحبب إليه التحصيل.

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر مني معونة على ضبط النظام، وقد كان، قضينا في هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ بسلطان أو سطوة، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأننا إخوان كبار لهم وأصدقاء نافعون.

ولم أكتف بهذا بل ألغيت الجرس الذي يدق إيذانا بابتداء الدرس أو انتهائه لأني لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر، وبهذا استغنيت أيضا عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لا داعي لهم.

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعا تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة.

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أخفق فقد اختلف الحال جدا وانقلبت الأوضاع.

١٢

كان عزائي في تلك الأيام قول القائلة:

راح يبغـــــــى نجـــــــوة مـــــن هـــــلاك فهلـــــك
والمنايـــــــا رصـــــــد للفتـــــى حيـــــث ســـــلك
كـــــل شيء قاتـــــل حـــــين تلقـــــى أجلـــــك

أي والله! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور، فقلت: أعفي أهلي من المتاعب التي تجر إليها الثورات واضطراب حبل الأمور، فحملتهم إلى بيت جدي لأمي «على حدود البلاد»، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا، ومضت شهور والثورة لا تقوم، حتى خالجني الشك في صحة رأيي، وكادت ثقتي بقومي تذهب، وكنت في تلك الأيام أعاني أشد البرح، فقد كان عملي في قلب العاصمة، وبيتي في الصحراء، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلو مترات أقطع نصفها وزيادة على قدمي غاديا رائحا كل يوم، ومعي ما يكفي لغدائي، فإني أكره طعام السوق، وكتاب أقرأ فيه في فترات الراحة من العمل، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح، فقد بطل العمل، وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب وكانوا يعتقلون بالمئات، ويحشرون في كل مكان يخطر على البال، حتى في مسجد محمد علي بالقلعة، وكان الناجون من تلاميذي يرتدون إلى المدرسة التي كنت ناظرها يومئذ، ويقصون علي ما جرى، ويذكرون لي أسماء المعتقلين من زملائهم، ومكان اعتقالهم، وكانت العلاقة بيني وبين تلاميذي علاقة أخ كبير بإخوة صغار، فكانوا لهذا لا يكتمونني شيئا، ولا يحجمون عن مصارحتي بما يدور في نفوسهم، وما تضطرب به صدورهم، ولا يترددون في مشاورتي حتى في أخص الأمور الشخصية، فكنا نعقد كل يوم اجتماعا

لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكن بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش.

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفا، ففي الوسع الاستغناء عن الأغطية واحتمال النوم على الأرض، فيبقى الطعام والثياب، ويطيب لي أن أروي أن بعض التلاميذ كان يرتدي عدة أكسية ويدس في جيوبه ما تتسع له من الآكال الناشفة، ويقصد إلى المعتقل الذي يعلم أن فيه إخوانا له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه، أي في المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم وقلما كان يصرفونه فيخلع على زملائه أكثر ما كوم على بدنه ويطعمهم مما حمل، وكان هذا يزيد المعضل تعقيدا، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد، فكنا نفعل كل ما يخطر على البال بلا حساب للعواقب، ما دام له غناء إلى حين، وسهل الأمر قليلا أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم في كل يوم.

وليس من همي أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها، وإنما أريد أن أقول: إنها زادت عنائي وضاعفت ما كنت أكابده من مشقات، وكل شيء عادة، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرغد، وسكنا إلى الأحوال الجديدة الحافلة بالمنغصات والمتعبات، وانقطع التبرم والضجر ووطنا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن تجيء به الأيام.

وكان كل طريق إلى بيتي، يحوج إلى اجتياز المقابر، فكنت أسلكها كل يوم، وأرى الأجداث المبعثرة في كل صباح ومساء، وتحت ضوء القمر، وفي وقدة الظهر، وفي الظلمة الحالكة، وفي البكرة المطلولة، فنفعني هذا وبلد شعوري بالموت، ومحا

استهوالي له وجزعي منه، وجعله فيما أرى وأحس، أمرًا عاديا لا غرابة فيه ولا جدة له، حتى لقد صار يتفق لي بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشي، فأقعد على صوى قر من القبور الكثيرة في طريقي، وأشعل سيجارة، وأروح أدخن، وأدندن بصوت خفيض، أو أرسل الصوت بالغناء، ولا أشعر بحرج أو استنكار.

وكان بدء التحول في حياتي أن زوجتي ماتت، وإني لأومن أن لكل أجل كتابا ولكني إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعفي نفسي من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها، وهو سكران، وقد مات هو أيضا بعد سنوات، فإلى حيث ألقت، وما أعرفني شمت بميت سواه، ولم يتعمد قتلها، ولكنا دعوناه وقد جاءها المخاض فشممت رائحة الخمر من فمه، وفحصها ثم قال لي: إن الحالة طبيعية؛ ولم يكن ثم موجب لدعوتي، وسيحصل الوضع في أوانه، ولكني جئت فلا داعي للانتظار -كذلك قال والله- وكنت أعاونه، فطهر الآلات وشرع في العمل، وجر الجنين فإذا الآلة التي طوق بها رأسه قد حفرت فيه إخدودًا يسع الخنصر، وشغل نفسه دقائق بالجنين، والتنفس الصناعي على غير جدوى، فألحت عليه أن يتركه ويعنى بالأم، فما ثم شك في أن الجنين مات، فرجع إلى الأم ليخرج «الخلاص» فكان والله يشده كما رأيت الفرق الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك من قوة، ثم رأى أن هذا لم يجد، فدس يده وأخرج الخلاص مقطعا إربا، ثم لفها، وقال: تزقد ولا تسقوها ماء، وأخذني معه، فقال لي: إن الحالة خطرة، وأنه آسف. فلم أطلق هذا اللف وسألته: «متى تتوقع أن تكون الوفاة؟ إني أسألك عن هذا لأني أوثر أن أكون على بصيرة، ولا تخش جزعي، فإن واجباتي الآن لا تدع لي وقتا للجزع»، فلم يجبني جوابا صريحا، وقال: سنرى ما يكون صباح الغد.

وعدت إلى زوجتي فأدركت مما رأيت أن النزف يلح عليها، وأنها تموت شيئا

فشيئا، فبقيت إلى جانبها أقوي نفسها وأنا يائس وأشد من عزيمتها، وأبتسم لها وقلبي يتفطر، وبالغت في التظاهر بالاطمئنان حتى لقد خلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم، ولكنها كانت تحس من نفسها ما لا أحس، فأوصتني بولدنا خيرا، وودعتني، وجادت بالنفس الأخير ويدي على يدها.

وكاد عقلي يطير، وهممت بأن أشكو الطبيب، ولكن ما الفائدة؟! وكيف أثبت تقصيره أو خطأه أو سكره؟! وشق علي الأمر حتى لقد تغير رأيي في الناس والحياة والدنيا، والخير والشر، وحدثت أكثر من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون، ولكن هذا لم يجدني، ولم يمنع أن طبيبًا ثملا قتل امرأتي، وأين العزاء في أنه غير عامد، وأن هذا قضاء وقدر على كل حال.

ولم ينجني من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي والاشتغال بتصحيح الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفعني فيها شاعر.

تغيرت جدًا بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر غير الذي عرفته في ثلاثين سنة على أني مع ذلك ظللت قادرًا على كبح النفس فلم يفلت من يدي العنان أو لم أدعه يفلت.

وانقضت الأربعون -وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوما موروثة من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الجثة أربعين يوما لتحنيطها- فلم أعد أطيق بيت جدي بعد أن خرجت زوجتي من دنياي فيه، فتركت فيه ما كانت زوجتي قد جاءتني به في جهازها واستأجرت بيتا آخر ملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومي لأصححه على قدر الطاقة.

واتفق في ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحاكمة كثيرين فيما زعموه

مؤامرة كبرى، وكان المتهمون أكثر من عشرين بينهم سكرتير اللجنة المركزية للوفد المصري الذي كان يفاوض لجنة ملنر بلندن، وكنت أعمل يومئذ في «الأخبار» مع المرحوم أمين الرافعي بك فسألني من نبعث إلى المحكمة لحضور جلساتها.. قلت: سأحضرها أنا، قال: إنه عمل طويل شاق، فدعه لغيرك، قلت: كلا، وإن بي لحاجة إلى عمل مضن يشغلني عن نفسي، ويصرفني عن التفكير في أمري، وما أصبت به في حياتي، فوافق ودعا لي بخير، ولم تدع لي المحكمة العسكرية وقتا لسواها، وكانت تعقد في اليوم جلستين، وظلت كذلك من يوليو إلى سبتمبر، وكنت في مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتمي على الفراش وأنام كالميت، فنفعني هذا أيضا وإن كان أسقمني.

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالي ستة آلاف من الجنيهات وكانت الاكتتابات تودع بنك مصر أولا فأول.

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتتابات يحفظ في بيتي أنا، وكان البيت طبقة واحدة، وله فناءان، واحد قدامه وآخر خلفه، وفيه الفرن وما إليه، وكان الجدار الخلفي واطئًا، فأيقظني ذات ليلة صوت جسم وقع في الفناء الخلفي فتوهمت في أول الأمر أن حجرًا مزعزعًا أسقطه قط أو نحوه، ولكني سمعت بعد ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب، فنهضت، ومضيت إلى الباب الموصد، وفتحت شباكه ونظرت فإذا واحد من أهل الحي ولم يخطر لي أنه جاء ليسرق، فما في البيت ما يستحق أن يطمع فيه أشد اللصوص قناعة، وظننته جاء يطلب شيئا، فحييته وإن كان قد أسخطني عليه أن يجيء في هذا الوقت المتأخر، وفتحت له الباب وقلت له: «تفضل» وحملت ما بدا لي من تردده واضطرابه على محمل الخجل

فألححت عليه فدخل، فمضيت به إلى المكتبة، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له قهوة، فاستغرب سلوكي معه، وأعجبه على ما يظهر، فأقر لي بالحقيقة وسألني الصفح، فضحكت، وقلت له: والله إني لجدير بأن أخجل منك، فإن البيت فارغ، ودرت به على الغرف ليرى بعينيه مبلغ فراغها فزاد خجله، وطال اعتذاره وعظم أسفه، فخطر لي أن من نقص المروءة أن أرده خائبًا، صفر اليدين، ولم أجد غير الكتب، فتناولت طائفة منها، وقلت له: خذ هذه وبعها، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلي، فقد مللت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها: إني أعطيته هذه الكتب، حتى لا يزعجه الشرطة.

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقا فقال لي يوما: إن هذا البيت غير مأمون لأنه «منطة» وأن الأولى أن أتخذ حارسًا، ولولا أنه مشغول بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة.. ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ، يؤدي هذا الواجب.

وبعد بضعة أيام جاءني بفقيه أعمى وقال: هذا حارسك، فلم أر أن أرده، فكان يبيت لكل ليلة عندي على الشرفة، وإلى جانبه نبوته، وكان خفيف النوم فكل شيء يوقظه، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح: «من القادم» فأستيقظ أنا أيضا.. فلم أجد لي في هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة، وقلت له: اقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم.

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة.

١٣

منذ مئات من السنين أو الحقب فما أبعد هذا الماضي فيما أحس، وما أقربه أيضا قرأت قصة هيبسيا لشالزكنجزلي، وكان صديقي العقاد هو الذي دفع بها إلي وأوصاني، وأنا أقرؤها، أن أحضر إلى ذهني قصة تايس لأناتول فرانس ففعلت، ورأيت كما رأى، أن من الممكن أن يقول المرء: إن القصة الإنجليزية هي التي أوحت إلى الأديب الفرنسي بموضوع تايس، وأنا أفضل القصة الإنجليزية، وإن كان أناتول فرانس أبرع فنا وأسحر أسلوبا، على أن هذا موضوع آخر، وكل ما أريد أن أقوله: إن في هيبسيا، على ما أذكر، رجلا عجيب الأطوار غريب الفلسفة، يكون في زورق أو سفينة -فما أدري الآن- فيروح يتفلسف في ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس، حتى ينتهي إلى إمكان القول بأنه هو غير موجود على الرغم من إحساسه بنفسه، وشعوره بوجوده.

وقد راقني هذا الرجل يومئذ وأعجبتني فلسفته، وإن كانت تئول إلى لا شيء، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقه يدور في نفسيَ ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه، أو ماذا هو في الرواية، وكنت في صباي -أي نعم في صباي- أحببت فتاة كانت جارة لي، وكانت في مثل سني ومن أجلها كففت عن اللعب في الحارة مع الغلمان ومن أجلها كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وأتملى بالنظر إلى حسن وجهها، فقد كان أهلي يزجرونني عن لقائها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبياني، وهؤلاء وأولئك جميعا يخشون العاقبة ولا يطمئنون إلى النهاية، وكنت لا أكتم حبي لها، بل أشعر به وأنا جذل مسرور وأحدث به غلمان الحارة، فيستغربون، وخادمنا فيدعو لي بطول العمر والسعادة، والشيوخ الوقورين من

أصدقاء أخي الأكبر فيضحكون، ويتسلون، ويربتون على كتفي ويقولون: «عال عال ما شاء الله ما شاء الله».

وكنت أقول لأمي حين تنهرني عن هذا الذي كان في رأيها عبثا: «ماذا يضير أحدًا أن أحبها؟»

فتقول: «اختشي يا ولد عيب!»

فأتعجب وأسألها «عيب؟ أي عيب في حبي لها؟ إني لا أصنع شيئا سوى أني أحبها»

فتقول: «هذا هو العيب»

فأسألها «ألست تحبينني؟»

فتبتسم وتقول: «يا بني كيف تسأل؟»

فأقول: «لست أسأل، فإني أعرف أنك تحبينني، وأنا أحبك وليس حبك لي عيبا، ولا حبي لك، فلماذا يكون ذلك عيبا؟!»

فتقول: «هذا شيء آخر، أنت ابني، وأنا أمك، ولكن هذه... هذه ليست منا».

فأسألها «إن أبي لم يكن منك ولكنك تحبينه، وما زلت تلبسين السواد حدادًا عليه منذ سنوات».

فتقول: «ولكنك صغير لا تفهم».

فأقول: «صحيح أني صغير، وأني لا أفهم، ولكني أحس يا أمي.. ألا يكفي أن

أحس؟ وصدقيني ولا تغضبي أو تستائي حين أقول: إنه أشهى إلي أن أكون جالسا إليها الآن وإن قلبي يرف صبوة إليها»

فتطرق شيئا ثم ترفع رأسها وتضع يدها على كتفي وتقول: «وبعد ما هي النتيجة؟ ما هو المآل؟»

فأقول: «لست أعرف ماذا تعنين؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح بذلك»

فتسأل: «ولكن النتيجة؟ ماذا بعد هذا الحب؟ ما آخرته؟»

فأقول: «لا شيء.. أحبها، وهذا هو الأول والآخر.. ثم لماذا يكون له آخر؟»

فتقول: «إنك طفل... وهذا غير معقول».

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام، كما ينمو شعر رأسي، وقد تحولنا إلى بيت آخر وبعدت الشقة جدًا ولم يكن هذا ليمنعني أن أقطع المدينة من أولها إلى آخرها سيرا على القدمين كل يوم لأزورها، وثابرت على حبها أعواما طوالا ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني، فغاب الخير والأنس، وغاضَ السرور من نفسي، وأظلم قلبي.

كان هذا وأن صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، وقد مضى ثلث قرن وزيادة على هذا الحب الأول، وزحفت المدينة، وهدمت الحي الذي كان فيه بيتها، هدمت كله، ورفعت عمائر جديدة، وشقت طرقا، ووسعت ميادين، وغرست أشجارًا، ومدت قضبانًا، وأجرت تراما، وإذا بي في يوم من الأيام أزور هذا الحي وأجوبه شبرا شبرًا، وأتمثل ماضيه كيف كان، حتى أهتدي إلى الرقعة التي كان بيتها قائما عليها فأرجع مغتبطًا قرير العين، وأزداد اعتزازًا بذكرى ذلك الحب.

ولم تبهت ولن تبهت صورة الفتاة، وإني لأراها الآن، كما كنت آراها في ذلك العصر الحالي، واقفة إلى جانبي وأمامنا على النافذة طبق فيه «لب» تقشره لي، وتعطينه، لأني لا أحسن قشره، أو جالسة على حشية تسرح شعرها الدجوجي، وترجله وتضفره، فأميل على رأسها، وأدني أنفي من شعرها الوحف، وأشمه. وإني ليخيل إلي أني أجد طيبه الآن في أنفي! وما أقول: «يخيل إلي» إلا اتقاء لإنكار القارئ فإن شعوري بذلك أصدق ما يمكن أن يكون شعور إنسان بشيء. وما زلت أراها، تجري في الحارة وراء دجاجة لها شاردة، وأنا أدعوها أن تتريث وتقف هناك، وتخطو مترفقة، على حين أقف أنا في ناحية أخرى لنحصر الدجاجة بيننا، ونزحف ونضيق على الدجاجة المارقة، وهي تصيح وتضرب بجناحيها، وتحاول الإفلات، فتنحني الفتاة عليها بغتة لتمسكها، فتأخذ عيني ثدييها الناهدين الراسخين وقد ثقلا بالثوب وأحس هزتهما تحته؛ فيدور رأسي وأذهل عن الدجاجة ولا أعود أدري أفلتت أم وقعت، فتصيح بي، وقد اعتدلت «ما لك وقفت وسكت؟ ألا تساعدني؟» فأفيق وكأني عدت من عالم آخر، ولا نزال بالدجاجة حتى نمسكها.

وصورتها وهي على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة وتثبتها بالمشابك، وقد كشفت عن ساعديها وطوت الكمين فوق المرفق، فبدت البشرة السمراء مضطرمة من أثر الغسل، وجهد الدعك وفعل الصابون.

وصورتها وهي واقفة بفناء البيت تودعني، وباب السكة موارب، وقد ضممتها إلى صدري، وطوقتها بذراعي، وعكفت على فمها بالقبل الحرار، وكان وجهها إلى الباب، وظهري إليه، فمر رجل من أصدقاء أخي، نعرفه ثرثارة تماما، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقي، وأحسبها ضجرت، وأتوهمها فترت، فأكتئب، فتصيح «لا لا.. هذا الرجل» وتقص علي الخبر وتعيد لي بشاشتي وترد إلى روحي الإشراق.

وصورتها وهي راقدة ورأسها على وركي، ويدي على شعرها أمسحه وأتخلله بأصابعي، وألمس خدها الأسيل، وأداعب شفتها الرقيقة بأصبعي، فتغافلني وتعضه.

كلا، لن تبهت هذه الصور أبدا، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها السن، أو يزداد عمرها عندي يوما، وستظل على الأيام غضة صغية.

ولكني نسيت اسمها، فكأني ما عرفته قط ولا سمعت به.

ترى ماذا كان؟ وكيف كان في السمع؟ وفي وسعي أن أسميها شيئا وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء، ولكنها عندي أحلى هكذا بلا اسم، ولا عنوان، وماذا يزيدها أن يكون لها اسم؟ وماذا أصنع به وليس ينقص الصورة شيء؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف في قصة هيبسيا.

١٤

بعد أن كتبت الفصل السابق شق علي أني نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التي أحببتها وأنا صبي، ولا يزال حبها أو لذكراه نوطة في الفؤاد، وعلوق بالنفس، وقضيت أياما أحاول أن أتذكر حتى وأنا أعمل أو أتكلم، أرى خواطري تنثني إلى هذا الذي تفلت مني وغاب عني، وكان يخيل إلي أحيانا أن السجف المسبل يمنحى قليلا، قليلا، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف، وأن نجما يوشك ومضه الخفاق أن يطالعني، فأبتسم، وأطمع، وأتشوف، ولكن ما كاد يرق يعود فيتكاثف ويتراكب، فأرتد بالخيبة والأسف، وأتعزى بقولي من يدري؟ إن للذاكرة معابثاتها، وقد يتفق لي يوما بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته، أن أكون في مجلس شراب أو في السينما، أو أكون ناهضا من رقاد، فيحضر الغائب ويظهر المحبوب أو المتواري، ويطفو الراسب، ومن يدري أيضًا؟ لعلي حينئذ أتذكر اسم الفتاة!

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها؟ هل يسعني أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذي كنت أعرفها به؟ كلا، فما إلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سبيل، وعجيب أن أنساه.

وأعجب منه أن ما يدور في نفسي من الأسماء لا أجد له في جوانبي صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هي قد نسيت اسمي، بل نسيتني جملة، فما كنا إلا طفلين نلعب بما لا نفهم، وما أحسبها غالبت بحبها لي وضنت به على العفاء كما غاليت وضننت، وأكبر الظن أن شئون الحياة وشجونها وأفراحها وأتراحها أذهلتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة، وله من سحر، وإنه ليخطر لي أحيانا، وأنا أرى بني أن هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بني منها، ولو رأيت أبناءها -أترى

صار لها بنون؟- لما وسعني أن أتصور أنهم بنوها دوني، أو على الأقل أن خاطري الماثل في نفسها لم يطبعهم بشيء مني، ولكن أنى لي أن أعرف بل أكون واثقًا أن خاطري يتمثل، أو كان يتمثل لها؟ ويشق علي أن أتصور أنها تنسى. ولعل حبها لم يكن كفاء حبي، ولكن أحسبها تنسى كل شيء إلا أني فزعت إليها واختفيت عندها وفي بيتها، وفي حجرة مظلمة رطبة مهجورة منه، يومين كاملين.

وكان أخي الأكبر -رحمه الله فإن به حاجة إلى الرحمة- قد أراد أن يبرني ويسرني فدعاني إلى مرافقته في يوم شم النسيم فذهب بي ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسي الثرثارة الذي أشرت إليه في الفصل السابق -والذي رآني أعانق فتاتي فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقهقه فسمعت به أمي واغتمت له جدًا- إلى روض الفرج، وكانت هناك سفن راسية.

وقد صفت عليها الكراسي والطولات على هيئة المقاهي، فجعل أخي وصاحبه يشربان «بيرة ستوت» وجاءت امرأة سمينة، ولكنها جميلة فسلمت وجلست، وأديرت عليها الراح التي تدار عليهما، ونظرت المرأة السمينة إلي بعينيها المكحولتين وسألت «ألا تشرب؟» فتبسمت ولم أرد، فقال أخي وكان من أظرف الناس إذا شرب: «خذ.. إن هذا لا يضر» فهززت رأسي أن لا، فمال علي وهمس في أذني «لا تخف اشرب وأنت آمن» فهززت رأسي مرة أخرى، فعاد يهمس في أذني «اشرب بالله، وسأقول لخالتي -يعني أمي ولم تكن خالته ولا أمه- أني اسقيتك سوبية» وهي شراب يصنع من الأرز فقبلت وأقبلت على الكوب الكبير أكرع منه كما يكرعون، وكان هذا أول عهدي بالشراب، فدار رأسي قليلا، وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني، وراج هذا الشركسي الثرثار يغمز أخي فيسألني هذا عن فتاتي، فأقول بحبي فيضحكون ويقهقهون، وتكون المرأة السمينة

الجميلة أعلاهم ضحكا وأشدهم قرقعة صوت وكانت صورة هذا المجلس ماثلة لخاطري، لما نظمت بعد سنوات طويلات المدد قصيدة مطلعها:

حثا شرابهما في ظل حسان ... رياه ريحاننا في مجلس الحان
ريا الحبيب ولا شيء كنفحته ... وهنا يهيج اطرابي وأشجاني
حثا شرابهما حتى رأيتهما ... لا يسمعان وإن كانا يقولان
هما أثيران علاني على ظمأ ... وبالشراب عِلى سري يغوصان

ولم أكن أعني هذه السمينة الجميلة؛ ولكن صورة مجلس الشراب الأول ألحت علي، فمضى القلم يرسمها في التي يطربني منها ما نثيره من الذكرى.

ولا أحتاج أن أقول أني سكرت، وقد دخلت علي أمي، وشعت من فمي رائحة أقوى من رائحة الخل، فغضبت غضبًا شديدًا ودعت جدتي لأبي وقالت: انظري ما صنع خيري بأخيه؟ فنادت جدتي أخي، فأقبل عليها يبستم لها، فصاحت به «يا قليل الحيا يا مزبلح.. خد» وخلعت القبقاب، وأهوت به على أخي وهو يضحك فيلاطفها ويعتذر ويسألها الصفح، ويحاول أن يطمئنها علي، وكنت أنا قد تسللت إلى غرفتي، وارتميت على السرير، ولم أكد أفعل حتى ألقيت ما في جوفي على البساط، فخجلت.

ولم أعد أطيق أن أنظر إلى وجه أمي أو جدتي، فصعدت إلى السطح وانحدرت منه على السلم المعهود إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء، وأهبت بها أن تؤويني، وتخفيني عن العيون حتى عيون أمها وأختها فحارت كيف تصنع، ورأيت أنا باب الحجرة المهجورة فدفعته ودخلت وقلت: هنا أختبئ، ولم يكن في الحجرة شيء يصلح للجلوس أو الرقاد، فسرقت الفتاة كرسيًا قعدت عليه حتى نتدبر الأمر، ثم جاءتني بحصير ومخدة فارتميت ونمت ساعات، ولما أفقت كانت قد هيأت لي طعاما

بيضا مسلوقًا وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزًا فأكلت هنيئًا وشربت ماء كثيرًا.

في هذه الحجرة قضيت ليلتين وكنت فيها كأني في سجن، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون، وكانت الفتاة تؤنسني بوجودها، وتجيئني بأخبار البحث عني، وقد ضحكنا جدا لما روت لي أنهم أطلقوا مناديا يصيح في الشوارع «ياللي شاف ولد تايه عمره اتناشر سنة لابس جلابية بيضة وراسه عريانه اسمه ابرهيم.. الخ الخ».

وكان ضحكنا لأني لست طفلا حتى يظنوا أني تهت وضللت الطريق وكان قلبي يعصره الألم كلما تصورت جزع أمي وجدتي، وبكاءهما، وقد هممت مرارًا أن أبعث إليهما بخبر مطمئن، ولكن الوقت كان يمضي ولا أفعل، وكان التردد في هذا والحيرة شر ما أعاني، ولكني كنت راضيا مغتبطًا بقرب الفتاة وحسن رعايتها لي، وصدق سريرتها في كتمان سري، حتى عن أمها وأختها، ولم أكن أبالي الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفا، والظلام جنة، وألفت عيناي النظر فيه فكان حسبي أن أرى محيا الفتاة.

ولكن الحب، بالغًا ما بلغ من القوة والعمق، لا يمنع أن يضيق المرء صدرًا بهذا الحب، وأن تلح الرغبة في الخروج من مثل هذا المحبس على ما كان فيه من الأنس، ولم تنكر الفتاة مني ما كان يبدو من تململي وضجري واشتهائي الخروج إلى النور، بل تطوعت فكانت رسولي إلى أمي تطلب لي منها الصفح، فما كان من أمي إلا أن ائتزرت وخفت إلي، وضمتني إلى أحلى صدر وأرق قلب كأنما كنت قد غرقت أو خطفت...

كلا، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي؟ فوق الثرى أم تحته يا ترى؟ قد تكون ماتت أو تكون الآن عجوزا شمطاء، فهل أنا أحب اليوم أن أراها، وأن أعرف كيف صارت من بعدي؟ لا!

وإني لأذكر أني كنت يوما أتمشى مع صديقي الأستاذ العقاد، فرأيت رجلا قصيرا مرسل اللحية أبيضها، مقوس الظهر، مغضن الوجه، فقلت لصديقي: «انظر.. هذا هو المازني في السبعين من العمر! تالله ما أقبح ما نحن صائرون إليه من الضعف والتهدم والدمامة! لا يا سيدي، خير من هذا المصير عمر قصير مع الصحة والقدرة».

نعم، أكره أن أرى الفتاة في حاضرها، وأن أفسد على نفسي صورة صباها النضير، وشبابها الريان، وهبها ماتت، فما ماتت عندي، وإني ليموت مني كل شيء، ولكنها هي عندي ومعي حية لا تموت ولا تهرم ما بقيت.

١٥

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انقباضا عن الناس، وفتورًا عن لقائهم، ومخالطتهم، ونفورًا من الاتصال بهم، وكنت قبل ذلك أحس الضيعة إذا لم أجد من أجالس وأحادث، وكان يسرني أن أسمع صوتي لا شاديا بل متحدثا وكانت لذة الحديث لا تعادلها عندي لذة، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الإخوان ذا ولوع به أو طلب له، من بريء وغير بريء وكانت الوحدة تتلف أعصابي، وتعصف باتزاني، وتكلفني شططا، ثم ألفيتني من حيث أشعر، ولا أشعر، أضيق الدائرة أو أوسع لنفسي المخرج من محيطها، وأتسلل شيئا فشيئا، حتى أصبحت أتلفت فلا أجد حولي أحدًا، وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم، أتردد، وبي من التهيب والخجل مثل ما يحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به.

وقلت لنفسي مرة: يا هذا، إنك لتمشي في شارع غاص بالخلق مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهن ساعة أو بعض ساعة، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإيابَ فلا يتفق أن تلقى وجها تعرفه، نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير فيه. وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة، ولا تزال يده ترتفع بالسلام أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك، إلا أنت فما يمر بك من تعرفه أو يعرفك، ومع ذلك أنت أشهر من يمشي في هذا الشارع، ولعل كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرءوا لك، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك، فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك- ورقات مغلفة أو مجلدة ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم، ومن يدري، لعلهم يستغربون، بل يستنكرون أن يروك في الطريق! فكثيرًا ما تحصل في نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب، وقد خابت لي

أنا آمال كثيرة في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم، لأني وجدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم. والصورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك، والنفس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلوينها وإنطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام في أحياء كثيرة، وهذه الصورة المتخيلة تكون من جهد النفس، والنفس لا يطيب لها أن يذهب جهدها عبثًا، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة، وأن التوفيق أخطأه فما يتعب فيه، ويباهى فيما بينه وبين نفسه به، وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء «غريب!»: لقد كنا نتخيل المازني شيئا جسيما له طول وعرض أو قولهم: لقد كنا نتصور أنك تكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة أو قولهم: أأنت المازني أم اختزاله؟ ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أبقى في أذهان الناس كما يشاءون أن يتخيلوني، وأن أظل عندهم كتابًا يقرءونه ويرضون عنه فيما أرجو- أو لا يرضون فقد استوى هذا وذاك عندي؟؟؟».

وقلت لنفسي أيضا: «إنك لم تعش إلى الآن كما تحب وتؤثر أن تعيش، ولا سبيل إلى حياة تشتهيها ما دمت تخوض العباب مع الخائضين وتضرب في اللجة مع الضاربين لأنه لا يسعك إلا أن تنزل في الأغلب على حكم الجماعة، ولكل جماعة قواعد حياتها، والأمر في جد الحياة مثله في لعبها ولهوها. وكما أن للعب أصوله ونظامه، كذلك للجد، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها، وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها، إذ القيد قيد على كل حال فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذي هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك».

وقلت لنفسي أيضا على سبيل التشجيع: «واعلم أنك لا تخسر شيئا تتحسر عليه، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت في مخالطتهم، فسيكون عندك خير عوض عما يفوتك، ذلك أنك تكون كالذي يشرب عصارة ولا يمص، فهل من الخسارة تعفي نفسك أن تعب التقشير والمص، ومنظر النفاية التي لم يبق فيها خير، وأن تقنع بالعصارة التي هي الخير كله؟؟».

وصحيح أن بذل الجهد لذة، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجيء بلا عناء، ولكني لن أحرم لذة الجهد، حين أستغني بالكتب عن الناس، وقد صرت آكل ما يريح وينفع، لا ما هو أشهى وأمتع، وأشرب ما يفيدني لا ما هو أعذب في فمي أو ما أنا إليه أميل وإني لأرد نفسي عن كثير مما يتحلب عليه الريق، لأن طاعة النفس فيه يجيء في أعقابها ما لا يطاق من الآلام والأوجاع، وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب، ولا أعرف لي الآن مطلبا عند الناس، فقد بعد ما بيني وبينهم جدًا، وإني لأراني مع الواحد منهم فأحس أنه في كوكب آخر وعالم غير عالمي، ليس همي همهم، ولا أنا منهم ولا هم مني في قليل أو كثير، ومني ذهب الشعور بالمشاركة فماذا يبقى؟؟ ولست أعني أني خير منهم أو أفضل، ولكني أعني أني أراني مختلفًا، والاختلاف ليس مزية، ولا أفضل فيه ولا رجحان.

وقلت لنفسي أيضا: «لقد ثار بي صديق مرة لأني سألته ألا تشتهي أن تتمرغ كالحمار على الأرض؟ وحسب أني أقول: إنه حمار، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ، وأعترف أني أسأت العبارة عما أريد ولكني إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية، وما دام لا ضير فيها على أحد فماذا يمنع منها؟؟ ولماذا نحيط أنفسنا بأسلاك شائكة لا ضرورة لها ولا منفعة منها؟.

وهبني تمرغت على التراب، وتقلبت على الأرض، كما يفعل الحمار، فأين البأس هنا؟؟ إذا كان ثم بأس فهو علي لا على أحد غيري، وثيابي هي التي ستتسخ، ووجهي هو الذي سيتعفر، وإذا كانت نفسي تنازعني أن أفعل ذلك فإني أنا الذي يؤذيه الإحجام عنه، وأنا الذي ترتاح أعصابه وتسكن نفسه إذا فعل، ولكن صاحبي غضب، وإن كنت لم أقصر في الشرح والبيان، وفي الاعتذار من سوء العبارة وقبح الاختيار للمثل. ولا يزال يذكرني بالسوء كلما عرض ذكري في مجلسه، ولا ينفك يقول: إني وقح قليل الأدب، ولا شك أني كما يقول ما دام الأدب هو ما يعرف. وقد يسره ويخفف من سخطه علي أن يعرف -إذ أمكن أن يحمل نفسه على قراءة شيء لي- أني أخرج في بعض الأحيان إلى الصحراء وأتمرغ كالحمار على رماله، وأعوي كالكلب وأموء كالقط، وأصرخ وأصيح في هذا الفضاء الشاسع، ثم أنهض وأنفض عن ثيابي الغبار، وأمسح وجهي ويدي، وأعود إنسانا محتشما ذا سمت ووقار، ولكن بعد أن أكون قد أرضيت نفسي وأشعرتها أني حر ولي في هذا الذي لا قيمة له عند الأكثرين، وأن في وسعي أن أفعل ما أشاء، وأكون على ما أحب، ولا نكران أن هذا لا يتاح لي إلا وأنا منفرد وحدي، ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفردا وحدك، وأن تنعم بذلك، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس.

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا مما عسى أن تفعل وأنت وحدك، ولكن كثيرين يكونون وحدهم، ولا عين عليهم، ولا خلاف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرءون أن يفعلوا ما تحدثهم به نفوسهم.

١٦

وقلت لنفسي أيضا: لا أدري لما هذا الموت؟ وإني لأشتهي أن أرى حياة من لا يموتون، وبودي لو يمتد بي الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يغالب هذا الردى العادي. وأحسب أن الموت هو مصدر ما نعده فضائل في الإنسان، وقد شرحت هذا فيما كتبته عن المتنبي في «حصاد الهشيم» فلا أعود إليه، ولكني أحسبه أيضا علة ما ألفنا أن نسميه الرذائل، غير أنه ما الخير والشر؟ وما الفضيلة والرذيلة؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط للسلوك، ووسيلة لتنظيم الجماعة والانتفاع بها في الطباع، وأنا لفي زمن يعد فيه الخير في مكان شرًا في مكان غيره، والفضيلة هنا مرذولة هناك، ولقد أدركت عهدًا كان ذكر الحب فيه عيبًا، وكان تقبيل الفتى لأمه التي نجلته، قلة حياء، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا، ونطلب لغير الشرعي من الأبناء مثل ما لصنوه الشرعي من الحق والكرامة، ونرى الخطيبين أو الزوجين، أو الصاحب والصاحبة يتلاثمان على قارعة الطريق وفي المجلس الحافل، ونحس الرضا والاغتباط من الناظرين، ونشعر أنهم يدعون لهما، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون، فأين العزاء فيه لحي لا يلبث أن يصبح «هالكا وابن هالك، وذا نسب في الهالكين عريق؟».

وطال تفكيري في هذا الموت، وخامرني خاطره، فهو لا يفارقني في يقظة أو منام، وإني لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما تراءى لي من الصور والحوادث في رقادي، وما غمضت عيني ليلة إلا وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغابيًا أو مغالطًا

«أترى كل ما في الموت هو هذا الفقدان للشعور بالذات؟» ولا ينفعني هذا فأرتد أقول: «وكيف يعد حيا من لا يعرف أنه حي ولا يحس بنفسه؟ وماذا تكون إذن جدوى استمرار حياة لا يحسها الحي ولا يفطن إليها ولا يدرك بها أنه موجود» أطبق الجفن على الجفن وأنا أحدث نفسي أن ما لا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه، فلأقصر عن تدبره، ولكن علي واجبًا هو ادخار القوة والدفاع بها إلى آخر رمق. ولكن قلبي يظل يخفق ويدق، ويكبر في وهمي أني إذا نمت قد تختلس مني الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعا ولا أقوم بكفاح، وأحس دقات قلبي في رأسي قوية تكاد تفلق العظم، وأسمعها بأذني مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج؛ بل يزلزل، فأحب لاستعادة السكون، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد، فإن القعود، فيما جربت، يعفيني من حدة الشعور بدقات القلب، وأروح أقول لنفسي: يا هذا إن الدقات منظمة وإن كنت أسمعها عالية، وكل إنسان يستطيع أن يسمعها ويستهولها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها، فقلبك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة، يجمد من جرأتها تيار الحياة، وقد قال لي طبيب استشرته: إن القلب سليم وإن جسمك الضئيل لا يكلفه جهدًا وإن أيسر عمله كاف جدًا لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أتلفتها بهذا التفكير الدائم في الموت، فهل تستطيع أن تبين لي على أي شيء تحرص في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي، ولا أبخس الحسن حقه ولا أغالي بالقبيح أو أهول به، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل.

ولكن الخاطر يظل حاضرًا أبدًا، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به، فأنا أقعد للطعام وأحس من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه، ولكن كل لقمة أتناولها يصحبها إنذار «حاذر من الكظة» فأنهض عن المائدة وما شبعت وتقول زوجتي وهي تقوم

معي: «لا أراك تأكل الكفاية» فأقول متمثلا: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع» وأتقي أن أعديها بما ينغص عيشي.

وأكون كما يقول الشاعر القديم:

ولما نزلنا منزلا طله الندى أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

ولكني أنظر إلى هذه التي هي منى النفس، وروح الحياة وريحانها فأرى بأول الظن «آخر الأمر من وراء المغيب» فتبدو لي ملفوفًا عليها كفن وقد شاعت الصفرة في محياها المتوهج، وآضت عينها التي تنفث السحر كقطعة من زجاج، وشاع فيها البلى علوا وسفلا، وصارت غضارتها ونضارتها صديدا سائلا تسد من نتنه الأنوف.

وأرد نفسي إلى عيني وأترفق بها وأنا أتصور مآلها، فأراها شجرة يذوي نورها، وتذهب زهرتها ويجف ورقها ويسقط عنها فتتعرى، ثم يجيء الحطاب ويهوي على أصلها بالفأس.. كانت هنا شجرة ثم غابت.. هذا كل شيء.

ويحضرني بيت للخيام مما ترجمته عنه:

وأين لا أين بلبل غرد كان يغني على الغصون لنا؟

فأديره في نفسي وأدهوره في شدقي، بلا صوت، وأظل مع ذلك أتبسم للجالسين وأحادثهم وأمازحهم وأجد معهم وهم لا يدرون أني قبر مظلم، وأني أستر نفسي وأحجبها عنهم بأزاهير الضحك المتكلف، أي نعم فما أعرفني ضحكت ضحكة من القلب، ضحكة سرور حقيقي عميق.. ولكن ما لهم هم أقول لهم ذلك، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود الدنيا في عيونهم؟

ويلقاني الشبان، ويسألوني، ويرهفون السمع لما أقول، وفي ظنهم أني أحكم

منهم وأعلم، وأني لكذاك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم أفضل منه الجهل، فأقول لنفسي: يا هذا، إنك مسخ كريه، وإن كان هؤلاء الشبان لا يعلمون، فلا تنزع القناع، ولا تكشف لهم عن الخراب والقبح اللذين في نفسك، ولا تدع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصدمهم به الحياة عاجلا أو آجلا بل آجلا كما أرجو لهم وأحب وإني لأتمنى لهم السلامة والنجاة، ودوام الاغترار بالعيش، وإن قلبي ليعصره عاصر حين أتخيلهم وقد فتحوا عيونهم على حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها، وأروح أرسم لهم صورة للحياة الزاهية وأضع نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا شططًا، فليس أقسى من ثني الأعصاب وإكراهها على حالة غير حالتها ويخيل إلي وأنا أبذل هذا الجهد من نفسي أني أوقدت نارًا تحت أعصابي لتحمى، وأني أدقها بمطرقة لتلين وتتخذ الصورة التي أريدها ويؤسفني أني لا أجد ما أمرهما به بعد ذلك لتخمد الجذوة وتبترد، ويذهب عنها الحر.

وأسأل نفسي «أتراك تتمنى أن تستأنف حياتك وتبدأها من البداية كرة أخرى؟» ولا أكذب نفسي فأقول: «لا» وأحس أني في حيرة، فلا أستطيع أن أقول: «نعم» وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة؟ وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية، فهل يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق، فأزهو في فراق النفس، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة، أو ابتداءها من جديد، إلا ضربا من الموت، فكأني سأموت ميتتين بدلا من واحدة.

وأحيانا أغالب هذا الخاطر بالتهكم والسخرية، أركب بهما نفسي والناس والحياة وكل ما فيها، وتستغرقني العاطفة الفنية فترة، فأذهل، وأهنأ، لأن بالي خلا من التنغيص، ولأن عاطفتي الفنية جعلتني فيما أحس أقوى من الحياة نفسها، لأنها

انتزعتني من اللجة، ووقفت بي على الشاطئ وأتاحت لي أن أتأمل صور الحياة من ناحيتها المسلية، وأنا بمعزل عنها فكأني محلق فوقها، غير خاضع لها.. ومن يدري؟ لعلي أدخل السرور على نفس أخرى مظلمة كنفسي، بما أعالج من فكاهة الحياة؟ وليس قليلا أن أستطيع ذلك وإنه ليسعدني أن أتوهم أني استطعت إسعاد غيري ولو دقائق معدودات وقد أكون واهما ولكنه وهم جميل، بل جليل، وأنه الذي يغريني بتلمس الجوانب الفكاهية في الحياة، ولا أنكر أن هذا يسري على نفسي أيضًا، ولكن ما ينفعني ويشفيني ساعة لا يخلو من نفع لغيري، وما أظن بي إلا أني أصبحت كذاك الذي شفاه دواء لا يعرفه الأطباء، فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكين المتوجعين لوجه الله وشكرا لله.

وقلت لنفسي أيضًا: «يا هذا، لقد جاوزت الخمسين، فأنت الآن في المنحدر، كنت على جانب آخر من جهل الحياة، تصعد وتتوقل، ويصرفك ما في الصعود من مشقات وما يتقاضاك من جهد، وما تأخذه عينك من صور ومناظر- عن التفكير في الذروة وما بعدها، فالآن أشرفت على الجانب الآخر، ولا مفر لك من النزول، وعبث باطل ليس يجدي أن تخادع نفسك، وتوهمها خلاف ذلك. وقد يتيسر لك أن تقف هنا قليلا، وتتلبث هناك لحظة، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف، لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق، فهي أبدا أو في الأغلب الأعم إلى تحت.. إلى المصير المحتوم.. وهو محتوم.. محتوم؛ ما في هذا أدنى شك فما قولك في رياضة النفس عليه؟؟ تروض نفسك على الموت.. على الاطمئنان إليه.. على السكون إلى ما يهولك منه، والرضا به؟؟ واعلم أن هذا لا ينفي حرصك على الحياة وضنك بها، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها، فأنت كالذي يذهب إلى مدرسة ليهيئ نفسه لغده المأمول، فهذا غدك الذي لا ريب فيه، فمن أصالة الرأي أن تتهيأ له، وسينفعك هذا، ومواجهة الحقائق أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها..».

وراقني هذا، فصح عزمي على رياضة النفس على السكون إلى الموت.

obeikandl.com

١٧

سألت نفسي: «لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية، مرة أخرى، فهل تراني أسير فيها كما سرت؟».

وخطر لي، وأنا أدير هذا السؤال في نفسي أن الأولى أن أسأل: هل يسرني أو هل أنا أشتهي، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة، وأن أكر راجعًا إلى تلك البداية؟

ولا أدعي أني كرهت هذا، ونفرت منه، ولكني أقول: وإني ترددت وصحيح أنها كرة لو أتيحت يكبر بها الأمل في طول البقاء في هذه الدنيا، والتلبث على الأرض ولكن المعول في الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة وعدد السنين بل بالامتلاء والسعة، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أني تجاوزت الخمسين، فإني كما قلت قديما أيام كنت مغرى بالنظم:

أحس كأن الدهر عمري وأنني ... أخو مغرق الأرضين بالفيضان

ويضحكني الآن أني قلت هذا، فما أعرف أخيَ المزعوم هذا من عسى أن يكون؟ وقد كنت أعني نوحا، ولكن نوحا لم يغرق أرضا، ولم يفجر ماء، وكل ما كان منه أنه صنع فلكا حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أقلعت السماء، وبلعت الأرض ماءها، فليته ما فعل؟ وهذا البيت مثال للتأليف السخيف الذي لا دقة فيه ولا إحكام، وبعد أن يقول المرء: إن الدهر كله، عمره، لا يقبل منه هذا القياس المحدود، بأن يكون أخا نوح أو حتى أخا آدم، فإن مسافة هذا الزمن مهما طالت لا تعدو أن تكون جزءًا من الدهر. وقد كنت في هذا البيت شبيهًا بالعامة أو الأطفال حين يقيسون ما لا حد له إلا ما له حدود قريبة. وللعامة عذر من أنهم محدودون، وأن فجاج الفكر

والخيال والشعور مسدودة عليهم، وليس كذلك الأديب الذي يزعم أنه واسع، وأنه عالم صغير «يسع السبعة الأقاليم طرًا» كما يقول ابن الرومي في بيت يهجو به ابن بوران، أو أمه، ويقول بعده:

كـضمير الفـؤاد يلـتهم الـدنيا وتحويـه دفتـا حيـزوم

والذي يزعم نفسه قادرًا على أن يطوي العالم كله في ضميره، وأن فؤاده يتسع للدنيا لا يجوز له أن يكون قاصرًا محدود الخيال، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامي النفس.

وكان بعض الإخوان قد أشار علي أن أعيد طبع ديواني بعد أن أضيف إليه ما لم ينشر، فقلت له: إني لا أرضى الآن عما فعلت من الشعر في صدر حياتي وإنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة، ليصبح في رأيي صالحا للنشر، ولا صبر لي على هذا، ولا وقت له عندي، ومن الخطل أن أنشر ما لا أستجيد، فقال: إن رأيك فيه ليس من الضروري أن يكون رأي الناس مثله، وأن ما لا يعجبك قد يعجب غيرك، وأن ما يروقك، قد لا يروق سواك.

فقلت: هذا صحيح، ولكنه شعري، ونشري له معناه رضاي عنه وارتياحي إليه، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لهم: خذوا هذا الشعر، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبي، ثم إن رأيي أنا في كلامي هو الذي يعنيني، وما قلته إلا للعبارة عما في نفسي.

فإذا كنت أراني لم أجد العبارة ولم أوفق في التصوير، وأني تشابه الأمر علي، لجهلي، وخلطت بين العرض والجوهر، وركبني الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسي وخواجي، فكيف أستبيح أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على

الناس؟؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت ما فيه من قصور، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتي كرة أخرى من البداية، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته، وأعذب، وإني لأغوص في أعماق نفسي الآن، فأجد أني في شبابي لم أسعد به كما أسعد بذكراه، وإني لم أجعل بالي في عهده إلا الحلاوة التي أتذوقها الآن من عرض أيامه على خاطري، ونشر المطوى من زمانه، وأحسب أن الذي يكسب ذكرى الشباب هذه الحلاوة ويرقق القلب له ويعطفه عليه، ويعصره أيضًا، هو أن الإنسان يتقي منه وينتخب، ويغربل وينخل، ويبرز ما يحب، ويحجب ما يكره ويقول: هذا هو الشباب!! كلا، ليس هذا بالشباب، وما كان قط، ولن يكونه، وإنما هو الحميد منه، مستخلصًا، ومصفى، ومعروضًا على نفس تحس دبيب الفناء، وتشعر بأنها مولية عن الدنيا، وكل ما يذهب، ولا يرجع يلتفت إليه القلب، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة في استعادته، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضا، وللكهولة لذاتها ومتعها، كما للشباب بل لعل متع الحياة ولذات العيش في الكهولة أقوى وأعمق، فإن للتجربة مزيتها وللمعرفة فضلها، والمرء يغالط نفسه حين يقول: إنه ما مر به كان أطيب ما هو فيه، فما كان كذلك، ولكن الذي في الماء لا يستطيع أن ينعم بمرأى البحر ومناظر السابحين فيه، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطئ، والماضي أوقع في النفس لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن، والأسف على انقضائه، وتمني عودته، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعا، كالسابح في الماء يشغل بجهد السباحة عما حوله من المناظر، وإذا وسع الإنسان أن يكون في اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله، كما يفعل حين يتدبر الماضي- إذا وسع المرء أن يفعل هذا، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة

الحاضر المتع المستفادة من رجع البصر أو التذكر.

والأمر يحتاج إلى رياضة؛ وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا، فأنا حين أكون على حال ما، لا أعجز عن انتزاع نفسي منه؛ والوقوف بمعزل عنه بحيث يتسنى لي أن أراقب ما يجري كأنه يقع لسواي وأن أدير فيه خاطري فأكون في الحاضر وكأنه مضى وظفر بالمتعة المحسوسة والمتعة المتخيلة وأضرب مثلا فأقول: هبني أعانق فتاة وأقبلها؛ فأنا حين أفعل ذلك أشعر بمتعة القبلة ولذة الضمة، ولكني أزيد على ذلك أني أستطيع أن أسبق هذه اللحظة بسنة أو سنتين. وأتصور نفسي جالسًا أتذكر حلاوة القبلة التي فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصوري هذا في أثناء التقبيل، فهما قبلتان واحدة أحسها بفمي ويرف لها قلبي وأخرى يجسدها لي خيالي كما ستكون بذكراها بعد انقضاء عام أو عامين وهكذا في غير ذلك.

لهذا لا أرى مزية للعود إلى الشباب.

١٨

سألني بعضهم هل تعتزل الناس، أو تروم أن تعتزلهم، لأنك مللت الحياة، وزهدت في العيش؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغمار، ومصارعة التيار، أي لفتور عراك وضعف أدركك.

وليست هذه ألفاظ السائل، فقد نسيت الموضع الذي كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها، والنسيان آفتي التي تكاد تذهب بلبي، فإني أنسى كل شيء إلا أني أكلت، وما أذكر الشبع إلا بما أعانيه من كربة الثقال، وأحسب أنه -وأعني النسيان لا الشبع- هو الذي حماني أن أحب وأعشق، وكيف بالله يكون حب من يمسي عاشقًا ويصبح ساليًا؟!

أي والله، وإن الحسن لفتنة، وإن القلب ليصبو!

ولكني أنسى أني صبوت، وتطير من رأسي الأسماء والأحاديث، كما تطير العصافير عن أعشاشها.

وقد اتفق لي أن خرجت يومًا بالسيارة وحدي إلى آخر مصر الجديدة، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشى في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء، وكنت مطرقًا أنظر إلى الأرض وأنا أخطو، وكان بالي إلى الفرق بين وقع قدمي -قدم رجلي السليمة، وقدم رجلي المهيضة- وإلى مسافة الزمن التي يستغرقها الخطو بكل منها، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى.

وكان الداعي إلى هذا أنه خطر لي أنه مخطئ في اجتناب الرقص، وأنه عسى أن

تسعفني ساقي المهيضة ولا تعبأ بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة فلا يبقى موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوغ لتوطين النفس عليه، وأنا أحب الرقص، ولكني لا أحب أن أكون حجر طاحون، وأخشى أن تخذلني ساقي، فأتلكأ وأبطئ، أو أدوس قدم التي أراقصها وأدور بها، وأخجل أن أجرب قبل أن أتبين وأستوثق، وإني لهكذا وإذا بي أصدم بفتاة داخلة من بعض أبواب الحديقة، فاتقيت الوقوع بإسناد كتفي إلى كتفيها، واتقته هي براحتيها على صدري وأفقنا فشرعت أعتذر، فقاطعتني وقالت: «أهو أنت؟».

فابتسمت وقلت: «ليس عندي أدنى شك في أني أنا، فهل يكفيك هذا الجواب؟ إنه على كل حال من نوع السؤال».

قالت: «إنما أعني أن هذه مصادفة عجيبة، أين كنت كل هذا الزمن؟».

فتأملتها، وأطلت التحديق في وجهها الصابح، ولكن رأسي لم يختلج فيه شيء. فهززت رأسي وقلت: «كل هذا الزمن؟ هل؟ هل أقص عليك تاريخ حياتي من البداية؟».

قالت: «ألا تذكر؟».

قلت: «هذه هي المسألة كما يقول هملت، فهل سمعت به؟».

قالت: «كيف تنسى؟ كيف يمكن أن تنسى؟».

قلت: «اسمعي» وجررتها من ذراعها إلى مقعد «هذا موضوع يحتاج إلى تقص طويل فقولي لي: هل أنا مدين لك؟ هل اقترضت منك مالا، أو استعرت شيئا؟».

فضحكت وقالت: «لا مال لي أقرض منه، وليس عندي ما يستحق أن يعار».

قلت: «هذا حسن فإني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس سؤال آخر..».

فقاطعتني وقالت: «لا تسأل... سأذكرك بكل شيء».

قلت: «خيرا إن شاء الله، هاتي ما عندك».

قالت: «أتذكر السويس؟».

قلت: «أعرف السويس، مصيف جميل، ومشتى أجمل، فهل تلاقينا هناك على ساحل البحر، أو في الكازينو، أو على الباخرة التي ركبتها إلى الحجاز أو...».

قالت وهي تضحك: «انتظر لا، لم نتقابل في السويس، بل في طريق السويس، عند الكيلو الخمسين، وكنا عائدين إلى مصر..».

فقاطعتها: «كنا؟ من تعنين؟».

قالت: «ألا تنتظر؟ أخي وصديقتان وصاحب لهما، وأنا، فانكسر غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجدة، وكاد يدخل الليل، وكدنا نيأس، فقد كانت السيارات التي تمر بنا لا تقف وهي صغيرة لا تتسع لنا، ولا تقوى على جرنا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك فوقفت، وسألتنا عما نريد، فأخبرناك، فاقترحت أن تحملنا جميعا في سيارتك، ولكنا اعترضنا، وقلنا: إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحت علينا أن نربط السيارتين فتجرنا، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لي: «ستخرب سيارتي، وسينهكها هذا العبء، ولكن حسبي عوضا أن ست عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشراق»:

وقد عرفناك وعرفتنا، وكتبت أسماءنا كلها في رقعة، ولقيتك أنا وأخي بعد ذلك مرتين، دعوتنا في أولاهما إلى السينما، وفي المرة الثانية قضينا أكثر من ساعتين في الأمريكين، وقد أخبرتك في ذلك اليوم أني مسافرة إلى الإسكندرية لقضاء شهر فيها، وأعطيتك عنواني فوعدت أن تزورني، وأن تكتب إلي، قبل الحضور، ولكنك لم تفعل لا هذا ولا ذاك».

قلت: «الحمد لله».

فقطبت وقالت: «إيه؟ ماذا تعني؟».

قلت: «اسمعي، إن رأسي هذا غربال واسع الخروق، كما يعرف كل من يعرفني، وقد كنت أخشى، وأنت تقصين علي الحكاية، أن أكون قد قلت أو فعلت شيئا.. الحمد لله على كل حال، فقد اقتصر الأمر على هذا القدر».

قالت: «ولكن لماذا لا تنتظر؟ لقد وعدتني أيضا..».

فقاطعتها قائلا: «هل تريدين أن تضحكي على ذقني؟ لأنك عرفت أني سريع النسيان، تخترعين وعودًا و...».

قالت: «ولماذا أخترع؟».

فتناولت ذراعها وسألتها: «سأوجه إليك سؤالا قد يبدو لك محرجا أو ثقيلا ولكن عذري هو هذا النسيان، هل قلت لك: إنك جميلة؟».

قالت: «نعم. قلت: إن عيني زرقاوان كالبحر، وعميقتان مثله».

قلت: «هذا صحيح» ففرحت وصاحت «هل تذكرت؟» قلت: «كلا إنما أعني

أن عينيك هكذا تماما وإن هذا الوصف هو الحقيقة على كل حال وهل.. وهل...؟».

قالت: «نعم».

قلت: «ماذا تعنين بنعم» بعبوس.

قالت: «أني منتظرة سؤالك».

فتشهدت وسألتها: «هل بستك؟؟ معذرة».

قالت: «أوه... هذا... نعم ثلاث مرات... مرة في الطريق وأنا معكم في السيارة ومرة...».

قلت: «كفى... كفى.. إني أسف.. ولم يبق إلا أن أسأل هل كانت القبلة حلوة؟! أظن أني سأجن..».

فقالت وهي تضحك: «إنك مدهش ولكن هل صحيح أنك تنسى إلى هذا الحد؟ أم تراك تتكلف لتعابثني؟».

قلت: «لا والله، ما أذكر أني رأيتك في حياتي..».

وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش.

فهذه حادثة تريك كيف يكون من المستحيل علي أن أعشق لأني أنسى، كل حب، بل كل عاطفة لا يزيد عمرها على أربع وعشرين ساعة، على الأكثر، ثم تنطوي.

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل فأقول: إني لم أسأم الحياة ولم أزهد

فيها، ولا فترت عنها، وبل أنا أطلب لها، وأقوى رغبة فيها مما كنت في أي عهد مضى، ولست آنس من نفسي عجزًا عن مسايرة الدنيا أو الناس، فإن الأمر على النقيض، وأحسب أن الرغبة في الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها أو قصرها، أو يفكر في أنها زوال، لأن ما يحسه من فيض الحيوية لا يجعل له بالا إلى شيء من ذلك، ولأنه يكون مشغولا بإنفاق هذه الحيوية الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر، فهمه أن يريح نفسه من ثقل الضغوط، وأن يفتح البوابات كلها لينحدر منها ويخرج ما يجاوز طاقته، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم ينقضي الشباب فيسلس التدفق وتخفف وطأته ويزداد شح المعين على الأيام، فيتسنى للمرء أن يفكر بعقله وينظر بقلبه وأن يدير عينه في الماضي، والحاضر وأن يمد بصره في المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية، فيفرق ويشفق وقد يجزع.

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشتهي أن يفوز فيما بقي له من العمر. بأضعاف أضعاف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم في أوجز وقت لأنه من يدري؟ قد لا يطول العمر وقد يتخونه الموت، وهبه طال فقد لا تبقى الصحة. وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع؟

فهو لهذا يقبل على الحياة، لم يكن يفعل في شبابه، لأنه كان مغترًا بالعباب الزاخر في شبابه، ومفتونا به، ومصروفا عن التأمل والتدبر، أما في الكهولة فماذا يغتر؟ وماذا يتوقع، وهو يحس النضوب يوما بعد يوم؟؟ ومن أجل هذا يخطئ من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة، فما ينقطع أو يفتر الإقبال، ولكن المرء في صغره يركب الحياة بالجهل، أما في الكهولة فإنه يركبها بالإرادة، وهو في شبابه يكون محمولا على متن تيار يستطيع أن يقاومه أو يصده، وفي كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة، يمخر بها إلى حيث يبغي، وقد صارت في عونه تجربته، وسكون التيار،

كذلك يخطئ من يحسب الكهولة أضأل استمتاعا بالحياة، فإنها أدرى بالمتعة، وأحس بها، وأفطن لها، وأعرف بوجوهها، وأخبر بالوسيلة إليها.

كلا، لست أنشد الاعتزال لشيء من هذا الذي سأل عنه بعضهم، بل لأسباب أخرى أعمق، أحاول أن أجلوها، وأراني كلما عالجت ذلك أذهل عنها، أو أستطرد، أو أغرق خطر أنها في بحر من الذكريات والتأملات.

obeikandl.com

١٩

قلت: إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالا على الحياة، وطلبًا لها ورغبة فيها، أو أن الكهل أقل تشبثًا بالحياة أو أكثر فضيلة أو آثر لها وللعفة والزهادة في سيرته، وقد أثار هذا القول اعتراض بعض الإخوان، فأنشئوا يجادلونني فيه، فكان مما قلته لهم: إنكم لا تواجهون الحقائق بل تهربون منها، وتشيحون بوجوهكم عنها، لأنكم ترون هذا أكرم لكما وأبعث على توقيركم، أو أنتم تجهلون نفوسكم، أو تغالطونها أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شابا كما كنتم، ولعل الفرق بيني وبينكم أني كنت، وما زلت، مغرى بإدارة عيني في نفسي، والغوص في لجتها على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث، وأني لأحب أن أسمي الأشياء أحسن أسمائها بل أسماءها الحقيقية، وأني قد أغالط الناس وأخدعهم. ولكني أصدق نفسي، وليس أحلى عندي وأمتع ولا أوقع وأروع، من أن أتناول نفسي، كلما تيسرت لي الخلوة بها، وأحطها على كرسي أمامي، وأتدبرها، وأجيل فيها عيني، وأفحصها وأجسها، وأسبر أغوازها، وأمتحن نزعاتها وبواعثها، وألتمس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها، وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد، بلا تلعثم، أو مصانعة، أو مغالطة، وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التجني، ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال.

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط، والصواب أنها هي التي تركبه في شبابه تركض به من غير أن يكون له رأي أو إرادة، ومن غير أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع، وما يركب الحياة بالرأي والإرادة إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع، أو هذا، على الأقل ما بلوته من نفسي، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح.

كنت شابًا فكيف كانت حياتي؟ وكيف كان الشعور بها؟ أرد عيني إلى هذا الماضي وأحدق، وأستشف، وأستجلي، وأستوضح.

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول: لا أدري! كل ما أدريه أني كنت محمولا على متن تيار قوي، وكنت أقرأ، وأعمل، وأجد وألعب، وأشتهي وأطلب أو أقصر، ولكن بغير فهم صحيح، أو إدراك تام لما أنا فيه، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور، كانت الكتب تعديني وتسحرني، فأنظر إلى الدنيا بعيون أصحابها لا بعيني، وأحسها بقلوبهم لا بقلبي، وأتصور حياتي وأقيسها على ما يروقني من صور الحياة في هذه الكتب، وأنتحل آمال أصحابها ومخاوفهم، وهماتهم وعزماتهم، ومثلهم العليا، وصور الكمال عندهم، وأوحي ذلك كله إلى نفسي، ثم أزعمني ندهم وقريعهم فأزهى وأتكبر، وأغتر، لأني أرى نفسي كما رسمها خيالي الذي استمد من هذه الكتب لا كما هو في الواقع، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحي هذه الكتب.

وأضرب مثلا- عشقت مرارًا، وقال في صديقي الأستاذ العقاد من قصيدة بعث بها إلي، في ذلك الزمان:

أنـــت في مـــصر دائـــم التمهيـــد بـــين حـــب عفـــي وحـــب جديـــد

وأذكر أنه بعث إلي يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفارًا لا أسماء، إشارة إلى معاشقي لا تنتهي، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقيدها قبالة أرقامها.

وإذا قلت: عشقت، فإنما أعني الآن أني اشتهيت، وأني عانيت هذا الضرب من الجوع الذي يسميه الناس الحب، ولكني لم أكن أدرك هذا يومئذ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه، وإنما كان ما أقرأ من الشعر يغريني بنشدان الجمال، ويطلقني كالنحلة بين

أزاهير الحسن، ويدفعني إلى إيحاء الشعر بالحب إلى نفسي، فأتوهم أني محب، وأني عاشق، فأقضي الليالي مسهد الجفن مؤرق النفس، أنظر الشعر وأقول في هذا المحبوب أو ذاك.

وألقى المحبوب، فماذا كنت أصنع؟؟ لا شيء! أكون معه كما أكون مع أي واحد من خلق الله، ولا يخطر لي حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد بنضارته ورونقه، أكلمه كما أكلم غيره، وأجد أو أمزح، على نحو ما أفعل مع إخواني بلا أدنى فرق وأرجع إلى بيتي، وأقعد بين كتبي، فأروح أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر، وأخلع عليها من الخيال حللا ذات ألوان شتى، وأستبعد ما دار من الحديث وما كان من إشارات أو نظرات لما أعبأ بها في حينها، وأحملها المعاني التي أريدها، فأسر بهذا، وأتألم لذاك، وأرى في هذه الكلمة والإشارة أو النظرة، معنى الرضا أو التشجيع، وفي تلك معنى التدلل أو الملال، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال هكذا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيدة.

لا، لم أكن أعيش، أو أشعر بالحياة، وإنما كنت أنظم شعرًا، وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذي أريد العبارة عنه، والعاطفة التي أتخيل الصدور عنها، وأوحي لنفسي هذا كله، وأنتهي بأن أعتقد بأن هذا هو الذي شعرت به حقيقة لا توهما، وأنه هو الذي خامر نفسي لا الذي أنشأته أنا لها بقوة الإيحاء.

ولا يخلو من فائدة في بيان هذه الحقيقة، وأن أقول: إن قرض الشعر هو الذي كان المقصود والذي اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة وإن ما كان من حب متوهم إنما كان ثمرة هذه الرغبة في قرض الشعر، أي أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له، كما يريد النجار أن يصنع كرسيا فيطلب الخشب وما إليه، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء، أن من أعرف الآن من نفسي أني صغوت بقلبي

إليها لم تكن قط موضوعا لشعري، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطرت عن زهرة إلى زهرة في بستان الحسن، فذاك لأن العاطفة لم تنشأ نشوءًا طبيعيًا، بل بإيحائها إلى النفس.

وفي وسع القارئ أن يقيس على هذا، فأنا لم أكن في شبابي أتلقى وقع الحياة مباشرة، بل عن طريق الكتب، وكنت لهذا كالذي نومه غيره تنويما مغناطيسيا، فرأيه، وشعوره، وعاطفته، وهواه، وأمله وخوفه، وحبه وبغضه، هو ما يحدث في نفسه إيحاء منومه.

وقد شببت عن هذا الطوق. وما زال ولوعي بالكتب كما كان، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنبها تلك الفتنة، فأنا أنظر في الكتب، وفي الحياة، بعيني، لا بين الكاتب أو الشاعر، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وأتلقى وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب، وأطلب الشيء لأني أريده وأراه جديرًا بالطلب، وأقيس قدرتي إلى رغبتي، وأوازن جهد السعي وثمرته المرجوة، وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط، والموازنة الدقيقة.

وأحاول أن لا أغالي بقيمة شيء، أو أن أبخسه حقه، ولا يستخفني هوى، أو يغرني حال، أو يخرجني عن طوري أمر، أو يفقدني اتزاني فرح أو حزن، ورضا أو غضب، ولا تجمح بي شهوة، ولا تركض بي صبوة لأني أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء، ولا أعدو بها مكانها، ولا أخلط بها الأوهام، ولأني أسير في الحياة بالإدارة الصارمة لا طوع الجواذب، فإذا سألتني لماذا أفعل الشيء؛ فإني أعرف الجواب الصحيح، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن؛ وكذلك ما أترك أعرف علة تركه.

ويمكن أن أقول ويمكن أن يصدق القارئ: إني كنت في شبابي أواقع الحياة مواقعة الهواة؛ أما الآن؛ فإني أواقعها مواقعة المحترف؛ وقد صارت الحياة عندي حرفة؛ تعلمتها؛ وحذقت منها الجانب الذي طلبته ورأيته أوفق لي، والفرق بين الهاوي والمحترف لا يحتاج إلى بيان.

وكل عواطفي وأهواء نفسي؛ طوع إرادتي، وإرادتي لا تخضع إلا لتقديري لما ينبغي ويحق لي في رأيي أن أفوز به من الحياة، والعمد في سيرتي محقق؛ إلى الحد الذي يتيسر للمخلوق الخاضع لسنن الخلق، وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسي، لأنه يكسبني حظا من الاستقلال ويجعل لي فيما أشعر نصيبا من الحرية؛ في الحياة؛ ولا شك أنه يجعل شعوري بالتبعات أقوى وأثقل، ولكن هذا هو الأكرم، إذ أي قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع.

٢٠

كانت حياة الشباب حياة كبت، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف إلى يومئذ معادًا غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرض الشعر وكنت أقول ولا يخفى علي عبث ما أحاول:

وما نظمي الأشعار إلا علالة ... لو ان سلوا بالقريض يكون!

وكنت أقول لمن يذكرون شعري:

فلا تنفسوا شعرا على مفوفا ... له لو علمتم جانب متخوف
كما نظمت هذه الرياح غمائما ... لها من غروب الشمس وشي مطرف
يهددها مما يضم ممزق ... ومما يوشيها مذيب ومتلف
لنا الله من قوم تذيب نفوسنا ... ويجني سوانا ما نشور ونقطف
ويصدر عنا الناس ريا قلوبهم ... ونحن عطاش بينهم نتلهف
نذوق شقاء العيش دون نعيمه ... على أننا بالعيش أدرى وأعرف

وأحب أن أتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولي:

ولكنه ما أخطأتنا لذاذة ... إذا بلغ السؤال القريض المثقف
إذا هو سرى عن هيف مفجع ... وآنس قلبا موحشًا يتشوف
فما تحفل الدنيا إذا جل ظلمها ... ونحن من الأيام والعيش ننصف

ولم يكن زعمي أني أحد الذين ينصفون نفوس الناس من الأيام وظلمها، بعزاء صادق أو دائم، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على كاهل صبري فأصيح:

لبست رداء العيش عشرين حجة ... وثنتين يا شوقي إلى خلع ذا البرد!
عزوفا عن الدنيا ومن لم يجد بها ... مرادًا لآمال تعلل بالزهد

فيوم كان فيض الحياة زاخرًا، كنت أقول: يا ليتني ما كنت، ولم يكن هذا طبيعيا، ولكنه كان ثمرة الكبت، وجني الحرمان، وقطاف الحيرة، والآن، وأنا أدلف إلى الخمسين، لشد ما أتمنى أن يثقل الزمان رجله، ليطول التلبث، وتقضي النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف الركب مسيره إلى «فجر لا شيء» كما يقول الخيام في إحدى رباعياته! وقد صار ما كان يشق علي أن أراه، باعثا على التسلية ومجلبة للسرور، ولم يصد ظني حين توهمت في أيام الشباب الكاذب، أني سأقضي حياتي ثائر النفس، هائجها، أنه ليس لي عن ذاك معدي أو مهرب فقد قلت:

سكنت فما أدري الفتى كيف يغتدي تجد به الأشجان طورا وتلعب

كما قلت على لسان غيري.

بل لم أسكن، ولكني نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى، فقد تغيرت الدنيا، واختلفت أحوال الحياة، فراجعت نفسي، ورضتها على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى. فقد عرفت أن شعوري القديم بالمقت للحياة كان غير صادق، وأنه لم يكن سوى مظهر لحالة عارضة أعانيها، وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة كان يصطدم أحيانا بالجزع من الموت، فكان يرجني هذا ويخرجني عن طوري، ويعصف باتزاني فأراني أثور وأحاول في مثل هذه الحالة الوقتية أن أنغص على الناس كأن لهم ذنبا أو كأنهم ليسوا مثلي سواء بسواء، فأروح أقلد «هيني» الشاعر الألماني، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون الثورة، فأقول مثلا:

سترخى على هذى الحياة الستائر وتطفأ أنوار ويقفر سامر
فهل راق هذا الناس قصة عيشتي وماذا يبالي من طوته المقابر؟
تركت لهم من قبل موتي وصية نظير التي وصت بها لي المقادر
وهبت لأعدائي إذا كان لي عدى همومي وما منه أنا الدهر ثائر

وأوصيت للمحبوب بالسهد ... وبالدمع لا يرقا ولا هو هامر
وبالجدري في وجهه ليزينه ... وبالعرج المشنوء والله قادر
وبالضعف والإملاق والبأس ... وبالقسم حتى تنقيه النواظر
وللشيب بالأوجاع في كل مفصل ... وبالثكل في الأبناء والحد عاثر
وكل سقام قد تركت لذي الصبا ... وما كنت منه في الحياة أحاذر
وللناس ألوان الشقاء وأنني ... إذا مت لا آسى على من يخامر

ولم يكن لي في ذلك الحين تبنون ومن أجل هذا فإنني لن أوصي لهذه الطبقة بشيء من تلك الثروة البغيضة.

وكان عقلي يثوب، فأطوي هذا الهراء، ولا أنشره فيما كنت أنشر من شعري. على أني كنت هادئا ساكنا، لما عثرت- وأنا أحاول عبثا أن أتعلم الألمانية وحدي -على بيتين فيهما غير قليل من خبث المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلي- والمفروض أنهما يكتبان على قبر صاحبهما:

أيها الزائر قبري ... اتئد ما خط أمامك
ها هنا فاعلم عظامي ... ليتها كانت عظامك

وترجمتي هذين البيتين، وأنا هادئ، دليل على أن الثورة كامنة في النفس وإن كانت لا تبدو في العادة.

ثم صرت لا يعزبني علمي أن غيري لا محالة ذاهب، إلى حيث أذهب وأن المآل واحد، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله، بل العوالم أجمع، حتى هذا لم يكن فيه مقنع، فكنت أشتهي أن أكون آخر من في الدنيا لأشهد مصرعها بعيني، وأطمئن. وربما غالطت نفسي فزعمت لها أن هذه شهوة فنية، ولكني لا أصدق! كلا، لا أصدق.

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين -ولا أدري لماذا لما أجعلهم أربعة أو عشرين!- يصنعون كفنًا للعالم:

تعاقبت أيديهم على النول دهرهم ... ولست أراه غير أني عالم
وما بي إلا أن تبصر العين حاجة ... أليس سوى ما أنت بالعين شائم؟
هنالك لو تدري تسدي أكفهم ... وتلحم ثوبا عهده متقادم
وفي مسمعي منهم وإن كنت لا أرى ... وجوههم أصواتهم والزمازم
يحوكون ثوبا ناصعا فيه تنطوي ... متى عريت هذي الدنيا والعوالم
من البرد الخزى بيض خيوطه ... ومن بلورات القر فيه نهانم
ومن نفس الريح المديد خطوطه ... ومن قطع السحب الثقال مراقم
ألا ليتني في الأرض آخر أهلها ... فأشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائي هذه المرحلة أيضا، فلست ألتمس عزاء، أو أنشد ما أغالط به نفسي في الحقائق، وسيان عندي اليوم أن يذهب الناس أو لا يذهبون، فما أحفل شيئا من هذا، وإنه لآثر عندي أن يبقوا، ولو كان إلى هذا سبيل، على أني لا أعني نفسي بأمرهم، وحسبي أمر نفسي، وهمي في هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده اضطراب، لا على الركود فإن هذا شر من الموت؛ بل هو طعمه يذاق في الحياة، والسكون قولة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة.